

بين ابن عربي واسبينوزا

الكاتب

د. محمد إبراهيم العوضي



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
مكة المكرمة
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة

فاضحة الملحدين وناصحة الموحدين

للإمام الفقيه

علاء الدين أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد البخاري الحنفي (٨٤١هـ)

دراسة وتحقيق

الطالب / محمد بن إبراهيم العوضي

بإشراف / كل من فضيلة

د . سفر بن عبد الرحمن الحوالي ــ د. بركات عبد الفتاح دويدار

قسم الدراسة

رسالة لنيل درجة الماجستير ١٤١٤هـ

٤ ـ الفيلسوف الهولندي اسبينوزا (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧) :

يلتقي ابن عربي ، واسبينوزا في أكثر من جانب ، فهما فيلسوفان شغلا بالألوهية وفهمها فأوقفا عليها معظم جهودهما وكتاباتهما. ولقيا من جراء آرائهما الدينية في الذات الإلهية ما لقيا من عنت ، فاتهما بالإلحاد والزندقة ، وهددا بالقتل.

وهما أيضًا صوفيان يركنان إلى حياة الخلوة والوحدة والتأمل ، وفي لغتهما وأسلوبهما تشابه وتقارب ، فهما يؤثران العمق والدقة ، ويحرصان على استعمال بعض المصطلحات لأداء معان خاصة . وقد يدل اللفظ عندهما على أكثر من معنى، وكأنما أريد به أن يكون صالحًا لمخاطبة أهل الباطن صلاحيته لمخاطبة أهل الظاهر ، أو بعبارة أخرى ملائمًا للخاصة ملاءمته للعامة. ومن أوضح الأمثلة على ذلك كتاب «فصوص الحكم» لابن عربي ، وكتاب «الأخلاق» لاسبينوزا ، وليس غموض أولهما في العربية بأقل من غموض الثاني مع اللاتينية[١]، وكثيراً ما تباين الشراح في فهمهما واستخلاص المراد منهما.

وقد استلفت هذا التلاقي الأنظار ، فلاحظ نيكلسون بحق أن لدى ابن عربي كثيراً مما يذكرنا باسبينوزا[٢]. ولاحظ المستشرق جوزيف بيلافسكي أن هناك «مواطن تشابه إن لم نقل علامات تأثير واضحة لفكر ابن عربي الفلسفي وتصوره الوجداني المتمثل في «وحدة الوجود» في المذهب الوجداني الذي أقامه باروخ اسبينوزا الفيلسوف الهولندي اليهودي الأصل»[٣].

---

(١) ـ يقول الدكتور زكي نجيب محمود : يسمي بعض الكتاب اسبينوزا «فيلسوف الفيلسوف» أي إنه هو الفيلسوف الذي بلغ من تعقيد كتاباته حداً بعيداً بحيث لو قرأه فيلسوف آخر لارتبك واضطر إلى التفكير العميق لكي يفهمه .

انظر : قصة الفلسفة الحديثة ، ص ٩٩ .

(٢) ـ وحدة الوجود بين ابن عربي واسبينوزا، د. إبراهيم بيومي مدكور، ص٣٦٨، الكتاب التذكاري.

(٣) ـ من العربي المسلم محيي الدين ابن عربي إلى المفكر الوحداني النصراني تايهارد دوشاردان .

د. جوزيف بيلافسكي ، محاضرات ومناقشات الملتقى الفكري العاشر للفكر الإسلامي، الجزائر، عنابة ١٩/ ١٩٧٦/١٠م ، ١٣٩٦/١٢/٢١هـ ، المجلد الأول ، ص٣٢٢ .

وإذا لاحظ الباحث مكونات ومبادئ فلسفة اسبينوزا مقارنة بفلسفة ابن عربي، يرى بالفعل هناك نقاط التقاء غير قليلة وجديرة بالدراسة وفي تصوري أن أقرب فلسفة وجودية لمذهب ابن عربي الوجودي هي فلسفة اسبينوزا.

ـ الله أو الطبيعة :

يرى اسبينوزا أن الله جوهر أزلي لا نهائي ، وهو يبدأ بحثه في الله ، في المقالة الأولى من كتابه «الأخلاق» بالتعريفات الأساسية لفهم غرضه، وأولها تعريف الجوهر فيقول : «هو ما هو في ذاته ويدرك بذاته وأعني بذلك أن تصوره لا يتوقف على تصور شئ آخر يتكون منه بالضرورة»[١].

وهكذا يريد اسبينوزا أن يخلص من التعريف إلى النتائج التي يقصدها وأولها أن الجوهر علة ذاته ، أي أن ماهيته تنطوي على وجودها ، فلا يتوقف وجوده على غيره . النتيجة الثانية أن الجوهر لامتناه؛ إذ لو كان متناهيًا لكان متصلاً بجواهر أخرى تحده وكان تابعًا لها متصوراً بها لا بذاته. النتيجة الثالثة أن الجوهر واحد ، إذ لو كان هناك تعدد في الجواهر لكان كل جوهر يحد الآخر ولتوقفت الجواهر بعضها على بعض ولبطل أن يكون الجوهر جوهراً أي متصوراً بذاته[٢]. وعلى ذلك فالله هو الجوهر الواحد ، الواجب الوجود بذاته ، الأزلي السرمدي. وليس ثمة موجود سواه ، وما الموجودات الأخرى إلا صفات وأحوال له. فهو «الطبيعة الطابعة» من حيث هو مصدر الصفات والأحوال ، وهو «الطبيعة المطبوعة» من حيث هو هذه الصفات والأحوال أنفسها. وما دام علة ذاته ، فليس في حاجة إلى شئ آخر لإثبات وجوده[٣]. «إذن الله والطبيعة شئ واحد أو وجهان لشئ واحد : الله هو الطبيعة الطابعة ، والكون هو الطبيعة

---

(١) ـ الموسوعة الفلسفية ، د . عبد الرحمن بدوي ١٣٨/١ .

(٢) ـ تاريخ الفلسفة الحديثة ، يوسف كرم ، ص ١١١ .

(٣) ـ وحدة الوجود بين ابن عربي واسبينوزا ، ص ٣٧٥ .

المطبوعة»[١]. ولما وحد اسبينوزا بين الله والطبيعة اتهم أنه يصغر من شأن الله فينزله إلى مرتبة الطبيعة ، وكان جوابه على اتهامهم : «إنني حقيقة الأمر لم أهبط بمنزلة الإله إلى مستوى الطبيعة ، بل رفعت الطبيعة إلى مستوى الله»[٢].

ويرى اسبينوزا أننا نعلم ماهية الجوهر بصفاته ، والصفة هي «ما يدركه العقل من الجوهر على أنه مكون لماهيته»[٣] أي مكون لذاته ، ولا نعلم من صفات الجوهر إلا اثنتين ، وهما الفكر والامتداد. ولكل صفة أحوال ، وتعريف الحالة أنه ما يقوم بشئ آخر ويتصور بهذا الشئ. فهو ما يطرأ على الجوهر من ظواهر. والأفكار والمعاني أحوال لصفة الفكر ، والأجسام أحوال لصفة الامتداد ، ووصف الله بالامتداد يثير ما يثير من اعتراض ، وإن أراد به اسبينوزا امتداداً فكريًا لا متناهيًا[٥].

فالألوهية عنده معنى مجرد وغير شخصي ، لأن التشخص يقتضي التعين ، والتعين في رأيه سلب. فليس لإلهه قدرة ولا إرادة ، ولا يفعل ما يفعله لعلة أو غاية ، وإنما تصدر الأشياء عنه وفق ضرورة إلهية وحتمية ثابته. ولا يمكن أن يقال إن الله كان يستطيع أن يريد غير ما أراد ، أو أن يفعل خيراً مما فعل. فالقول بالضرورة عنده أليق بالكمال الإلهي من الحرية المطلقة. وما دام الكل يخضع لضرورة صارمة فلا محل لثواب أو عقاب ولا لحساب أو مسئولية[٦].

وللحب الإلهي أهميته في فلسفة اسبينوزا ، إذ يقرر أن هذا الحب العقلي لله هو نجاة الإنسان وحريته وسعادته ، وطريق هذه المحبة هي المعرفة ، فبقدر ما

---

(١) ـ الموسوعة الفلسفية ، د . عبد الرحمن بدوي ١/ ١٤٠ .

(٢) ـ قصة الفلسفة الحديثة ، ص ١٠١ .

(٣) ـ تاريخ الفلسفة الحديثة ، ص ١١٢ .

(٤) ـ المصدر نفسه ، ص ١١٢ .

(٥) ـ وحدة الوجود بين ابن عربي واسبينوزا ، ص ٣٧٥ .

(٦) ـ المصدر نفسه ، ص ٣٧٦ .

ندرك ونتصور أنفسنا ، وسائر الأشياء في هذا النظام الكلي اللامتناهي - فإننا نعرف الله ، وما إدراكنا إلا جزء من العلم الإلهي ، وهنا تنبثق لذة تملأ العقل والنفس بهجة لا حد لها ، وتلك هي محبة الله ، بل الخلود الأبدي. وكلما ازدادت معرفتنا للنظام الكلي ازداد حظنا من الخلود[١]. وليس بواضح ما إذا كان الحب من جانب واحد ، أو متبادلاً ، فيقصره اسبينوزا على الإنسان فهو يفسر الحب العقلي بأنه «نفس الحب الذي به يحب الله نفسه ، لا من حيث أنه لامتناه ، لكن من حيث أنه يمكن التعبير عنه بواسطة ماهية العقل الإنساني منظوراً إليه مندرجًا تحت نوع الأبدية»[٢]، لكن لما كان الله والطبيعة شيئًا واحداً ، فإن اسبينوزا يقرر «فإن حب الله للناس والحب العقلي لله هما شيء واحد»[٣].

بعد هذا العرض الموجز لفلسفة اسبينوزا يتضح مدى التوافق في الرأي بين الفيلسوفين العربي والهولندي ، فكلا الرجلين يعتنقان مذهب وحدة الوجود ، ويصورانه تصويراً يكاد يتفق في التفاصيل والجزئيات ، فضلاً عن الأصول والمبادئ. فهما يقرران أن العالم شئ واحد ، وأنه هو الله جل شأنه ، ويقولون بواحدية لا تعدد فيها ولا كثرة ، ولا خلق ولا صدور[٤]. «فابن عربي يعترف بأصلين أو مبدأين يستند إليهما الوجود ، هما : مبدأ العلية والمعلولية أو التأثير والتأثر ، ولكن هذه الثنوية ليست سوى ثنوية صفات تتصف بها حقيقة واحدة لا انقسام فيها ولا تعدد ، وليست بحال من الأحوال ثنوية جوهرية تفترض وجود جوهرين مختلفين متمايزين ، جوهر فاعل وآخر منفعل. وليس هناك ما يمنع القائل بوحدة الوجود أن يقول بثنوية الصفات في الحقيقة الوجودية الواحدة كما قال اسبينوزا بوجود صفتي الامتداد والعقل في الجوهر الواحد الذي هو أصل جميع الموجودات»[٥].

---

(١) ـ الموسوعة الفلسفية ١٤٢/١ ، وحدة الوجود بين ابن عربي واسبينوزا ، ص ٣٧٦ .

(٢) ـ الموسوعة الفلسفية ١٤٢/١ . (٣) ـ المصدر نفسه ١٤٢/١ .

(٤) ـ وحدة الوجود بين ابن عربي واسبينوزا ، ص ٣٨٦ .

(٥) ـ تعليقات عفيفي على فصوص الحكم ٢٦٢/٢ .

وكلا الفيلسوفين يقولان بألوهية شاملة تستوعب الكون كله ، فكل الأشياء في العالم واحد ، والله هو الكل في الكل. هذا العالم خاضع «لقانون الوجود العام» كما قال ابن عربي ، أو «الضرورة الطبيعية الإلهية» كما قال اسبينوزا ، فلا تخلف فيه ولا شذوذ ، ولا عرض ولا استثناء، وليس فيه عيب ولا نقص ، وإنما هو خير كله وكمال كله. يقول الدكتور إبراهيم مدكور : «ومن أمتع صور هذا التلاقي فكرة الحق والخلق من جانب ، وفكرة الطبيعة الطابعة والطبيعة المطبوعة من جانب آخر ، فالحق عند ابن عربي يساوي تمامًا الطبيعة الطابعة التي قال بها اسبينوزا ، والخلق يساوي أيضًا الطبيعة المطبوعة»[١]. يقول ابن عربي :

فالحق خلق بهذا الوجه فاعتبروا | وليس خلقًا بهذا الوجه فادكروا
جمِّع وفرِّق فإن العين واحدة | وهي الكثيرة لا تبقي ولا تذر[٢]

فالحق والخلق وجهان لوجود واحد أو لحقيقة واحدة[٣].

وكذلك هناك نوع التقاء في فكرة الحب الإلهي ، الذي يستلزم طرفين محبًا ومحبوبًا ، والمحبوب الحق عند ابن عربي هو الذات الإلهية ، التي تتجلى فيها معاني الجمال ، والمحبوب واحد مهما تعددت مجاليه ، ويحاول أن يشرح ذلك على نحو يتلاءم مع نظرية وحدة الوجود ، إذ ليس الحب بمقصور على الخلق ، فالله يبادل عباده حبًا بحب ، فالله يحب خلقه لأنهم صوره ومجاليه ، فحبه ذاتي ينعكس منه وإليه . «فان الحق من حيث تعينه في عين عبده يشتاق ويتقرب إلى نفسه»[٤].

---

(١) ـ وحدة الوجود بين ابن عربي واسبينوزا ، ص ٣٦٩ .

(٢) ـ فصوص الحكم ١/٧٩ .

(٣) ـ تعليقات عفيفي على فصوص الحكم ٢/٢٦ ، وانظر : شرح العلاقة بين الحق والخلق في التعليقات على الفصوص ٢/٥٠، ٥١، ٥٣، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦٥، ٦٩، ٨٥، ٨٧، ٩١، ٩٢، ١١٢، ١٢١ . وفلسفة وحدة الوجود ، ص ١٦٥ ـ ١٦٩ .

(٤) ـ شرح عبد الرزاق القاشاني على الفصوص ، ص ٣٣١ ، وانظر : الفص المحمدي ، من فصوص الحكم ١/٢١٤ ، وتعليقات عفيفي عليه ٢/٣٢٧ .

والسؤال الذي يفرض نفسه بعد هذا العرض الذي عرفنا منه التقاء أو توافق الفيلسوفين في أصول أفكارهما ، هل الأمر مجرد توافق خواطر؟ أم أن هناك سبيل لتأثير وتأثر؟ يستبعد نيكلسون التأثير فيما بينهما ، وأن يكون بعض اليهود الأسبان قد نقل آراء ابن عربي إلى العالم الغربي ، في الوقت الذي يربطه «أسين بلاثيوس» به ، ويعقد صلة بينه وبين دانتي[١]. وأبو العلا عفيفي يرى أن «لمذهب ابن عربي في الفتوحات وغيره أثراً غير قليل في فلسفة اسبينوزا عن طريق ما كان شائعًا في عصره في الأوساط الفلسفية اليهودية من تعاليم الشيخ محي الدين وأفكاره ، فإنه مع اختلاف الرجلين في المنزع والمنهج ، نجدهما يتفقان اتفاقًا يكاد يكون تامًا في تصورهما لوحدة الوجود على الرغم من ثنائيته التي يقول بها العقل وكثرته التي يقول بها الحس. ولا يمكن أن يعتبر هذا التشابه التام بين مذهبي الفيلسوفين من قبيل المصادفة البحتة أو توارد الخواطر»[٢].

والدكتور طلعت مراد بدر ، يرى أن اسبينوزا وإن لم تجمعه مع الشيخ محي الدين مؤثرات واحدة ، إلا أنهما يلتقيان في أثر مفهوم وحدة الوجود على فلسفتيهما الدينية ، ويدعو إلى أن يتجاوز الباحثون رأي نيكلسون في استبعاده حصول التأثير والتأثر فيما بين الرجلين ، ويقول بإمكانية قيامه ، ويطرح فرضيته في حصول هذا التأثير[٣] ، ويشترك معه في هذه الفرضية نفر من الدارسين منهم المستشرق المعاصر جوزيف بيلافسكي[٤] ، والدكتور إبراهيم بيومي مدكور[٥] ، هذه الفرضية تقول : إن ابن عربي أندلسي النشأة ، فهو مواطن ومعاصر لموسى

---

(١) ـ وحدة الوجود بين ابن عربي واسبينوزا ، ص ٣٧٩ .

(٢) ـ دراسة حول الفتوحات المكية لابن عربي ، بقلم الدكتور أبو العلا عفيفي ، تراث الإنسانية ، ١٦٨/١ ـ ١٦٩ .

(٣) ـ ابن عربي الفيلسوف المفترى عليه ، ص ٤٢ .

(٤) ـ من العربي المسلم ابن العربي إلى الوحداني النصراني دوشاردان . محاضرات الملتقى الفكري العاشر للفكر الإسلامي ، الجزائر ، عنابة ١٩/١٠/١٩٧٦م ، ٣٢٣/١ .

(٥) ـ وحدة الوجود بين ابن عربي واسبينوزا ، ص ٣٧٩ .

ابن ميمون ، صاحب (دلائل الحائرين) «الذي ترجم إلى العربية واللاتينية ، وهو يحتوي على بعض من معالم متصوفي وفلاسفة الأندلس ، ومنهم ابن عربي[١]» ، كما أن هناك مفكرين يهوداً أمثال ابن جبرول ، كانوا من المتأثرين بأفكار ابن مسرة الجبلي[٢]. وقد عاصر أيضًا يهوداً أسبانيين آخرين في عصر نشطت فيه حركة الترجمة من العربية إلى العبرية أو القشتالية ، ومن هذين إلى اللاتينية. وليس ببعيد أن يكون قد نقل - فيما نقل - شئ عن مذهب وحدة الوجود على نحو ما صوره الفيلسوف الصوفي ابن عربي ، الذي كان يملأ سمع العالم العربي وبصره في القرن الثالث عشر الميلادي[٣]. وكان اسبينوزا عارفًا باللغتين اليونانية واللاتينية ، وقد كان عارفًا بالفكر الفلسفي اليهودي المتوسط ، فقد نشأ في بيئة ثقافية ودينية ، وأفاد منها ما أفاد ، فأبوه رئيس الطائفة اليهودية في أمستردام، وأريد به أن يكون حاخامًا ، وأعد لذلك إعداداً خاصًا ، فدرس التوراة والتلمود في المدرسة اليهودية التي تعرف فيها على مذاهب القرون الوسطى ، وخاصةً منها فلسفة ابن ميمون القرطبي الذي يعد أكبر ممثل للارسوطالية اليهودية[٤].

---

(١) - ابن عربي المفترى عليه، د. مراد طلعت بدر، ص٤٢ ، ورأي الدكتور في احتواء كتاب «دلائل الحائرين» على فلسفة ابن عربي غير دقيق ، المترجم ابن ميمون توفي سنة (٥٨٢هـ) ، وفي هذه السنة كان ابن عربي يبلغ الثانية والعشرين من عمره ؛ لأنه ولد سنة (٥٦٠هـ) ، وفي هذه السنة كان ابن عربي في إشبيلية طالبًا للعلم فيها ، ولم تكن فلسفته الوجودية قد ظهرت في صيغتها النهائية المكتملة إلا في بلاد المشرق وهو لم يرحل من الأندلس إلا في سنة ٥٩٠هـ ، إلى المغرب العربي ، ثم في سنة ٥٩٨هـ إلى المشرق ، وكتبه الفصوص والفتوحات اكتملت هناك. ولكن يمكن أن يقال إن ترجمة ابن ميمون فيها دلالة على تأثير اليهود بالغزالي والسلوك الصوفي العام . كما ذكر العقاد (ما يقال عن الإسلام) ص١٠٠ ، كما تدل ترجمته على وجود الترجمة في عصر مبكر .

(٢) - الفكر اليهودي وتأثره بالفلسفة الإسلامية ، للنشار والشربيني ، ص ٢٨٠ .

(٣) - وحدة الوجود بين ابن عربي واسبينوزا ، ص ٣٧٩ .

(٤) - من ابن العربي إلى دوشاردان ، الملتقى الفكري العاشر للفكر الإسلامي ، الجزائر ١٩/١٠/١٩٧٦م ، ٣٢٣/١ .